الدعوة إلى الاجتماع ونبذ الخصام

في «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» رحمه الله تعالى

بقلم
الدكتور حسين بن عودة العوايشة

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

ثمَّ وضّح أنّه من واجب المسلم إذا صار في مدينة من مدائن الإسلام أن يصلي معهم الجمعة والجماعة، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، - وإنْ رأى بعضهم ضالًّا - فيجب عليه دعوته وإرشاده ما أمكَنَه ذلك.

ثمَّ حذَّر -رَحِمَهُ اللَّهُ- من تفويت بعض المصالح الشرعيّة لمن أراد هَجْر المسلم، ومِن ذلك: أنّه قد يُفوِّتُ الجمعة والجماعة، فهذا جهل وضلال، وخيبة ووبال، ويكون قد ردَّ بدعةً ببدعة.

وبيّنَ عدم مشروعيّة إعادة الصَّلاة خلف أهل الفجور والبِدع ذاكرًا الأدلّة على ذلك.

إلى أن قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

« فالمُتأوِّلُ والجاهِلُ المَعذُورُ لَيسَ حُكمُهُ حُكمَ المُعانِدِ والفاجِرِ ».

فيا ليتنا نتدبّر هذه الكلمات العظيمة، ونفرّق بين المتأوِّل والمعانِد والجاهِل والفاجِر... بين مَن جَهِل الحُكم ولم يُرِد المعصية، وبين من علِمَ ذلك ورَكبَ هواه... ليسوا سواءً.

ترجمة عملية لشيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ- تدعو إلى التآلف في عفوه وصفحه وأدب تعامُله مع مخالفيه

كم عانى شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ- من المكايد والخُصومات، ومن ذلك سَجْنه مرّاتٍ عديدة، حتّى إنّه تُوفّي في سجن القلعة، وكذا المطالبة بقتله وإصدار الفتاوى في ذلك، ومع ذلك؛ فإنّه سلك مسلكًا رائعًا في العفو والصَّفح، كما أنّه

ترك للأمّة آدابًا عظيمة في ذلك نابعة من الكتاب والسُّنة وآثار السَّلف.

وإنَّ مِن أبرزِ ما يَنْجَحُ به المرء في تحقيق المحبَّة والائتِلاف، والسعي إلى جَمْع الكلمة؛ أنْ يكونَ صادقًا في هذا كُلّه، وقد قال ربُّنا - سبحانه -: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[١] وفي الحديث: « إنْ تَصدُقِ الله يَصْدُقْك »[٢].

وأنْ يَدْفع بالَّتي هي أحسَن، قال - تعالى -: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[٣].

وأن يُحسن إلى من أساء إليه.

فعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لمّا ضَممت إليَّ سلاحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وجْدتُ في قائمِ سيفِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رُقعةً فيها: « صِلْ منْ قَطَعَك، وأحسِنْ إلى منْ أساءَ إليْكَ، وقُل الحقَّ ولو علَى نَفسِك »[٤].

قال - رحمه الله تعالى - في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥٢):

« وأوّلُ ما أبدأُ بِهِ مِنْ هَذا الأصْلِ [أي أهل الجماعة كما ذكر قبل سطور]:

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) في هذا حديث شدّاد بن الهاد رضي الله عنه، وفيه قصة، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» والنسائي «صحيح سنن النسائي» (١٨٤٥)، وغيرهما، وانظر: «أحكام الجنائز» (ص٨٠)، و«صحيح الترغيب» (١٣٣٦).

(٣) فصلت: ٣٤.

(٤) رواه أبو عمر ابن السمّاك في «حديثه» بإسناد صحيح، كما في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٩١١).

ما يتعلَّقُ بي فتعلَمُونَ - رَضيَ اللهُ عَنكُم - أنّي لا أُحِبُّ أنْ يُؤذى أحَدٌ مِنْ عُمُومِ المُسلِمينَ - فضلًا عَن أصْحابِنا - بِشيءٍ أصلًا لا باطِنًا ولا ظاهِرًا.

ولا عِندي عَتبٌ عَلَى أحَدٍ مِنهُم، ولا لَومٌ أصْلًا، بلْ لَهُم عِندي مِن الكَرامَةِ والإجلالِ والمَحَبَّةِ والتَّعظيمِ أضعافُ أضعافِ ما كانَ كُلٌّ بِحَسَبِهِ، ولا يَخْلُو الرَّجُلُ: إمّا أنْ يَكُونَ مُجْتَهِدًا مُصيبًا، أو مُخطِئًا، أو مُذنِبًا، فالأوَّلُ: مَأجُورٌ مَشكُورٌ، والثّاني مَعَ أجْرِهِ عَلَى الاجْتِهادِ؛ فمَعفوٌّ عنهُ مغفُورٌ لهُ، والثّالِثُ؛ فاللهُ يَغفِرُ لنا ولَهُ ولسائِرِ المُؤْمِنينَ.

فَنَطوي بِساطَ الكَلامِ المُخالِفِ لِهَذا الأَصْلِ، كَقَوْلِ القائِلِ: فُلانٌ قَصَّرَ، فُلانٌ ما عَمِلَ، فُلانٌ أُوذِيَ الشَّيْخُ بِسَبَبِهِ، فُلانٌ كانَ سَبَبَ هَذِهِ القَضيَّةِ، فُلانٌ كانَ يَتكَلَّمُ في كَيْدِ فُلانٍ، وَنَحْوَ هَذِهِ الكَلِماتِ الَّتي فيها مَذَمَّةٌ لِبَعضِ الأَصْحابِ والإِخْوانِ، فَإِنّي لا أُسامِحُ مَنْ أَذاهُمْ مِنْ هَذا البابِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلّا بِاللهِ.

بَلْ مِثْلُ هَذا يَعُودُ عَلَى قائِلِهِ بِالمَلامِ، إلّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْ حَسَنَةٍ وَمِمَّنْ يَغفِرُ اللهُ لَهُ إنْ شاءَ، وقَدْ عَفا اللهُ عَمّا سَلَفَ.

وتَعلَمُونَ أَيضًا: أَنَّ ما يَجْري مِنْ نَوْعِ تَغليظٍ أو تخشينٍ عَلَى بَعضِ الأَصحابِ والإِخوانِ، ما كانَ يَجري بِدِمَشْقَ ومِمّا جَرَى الآنَ بِمِصرَ، فَلَيسَ ذلِكَ غَضاضَةً وَلا نَقصًا في حَقِّ صاحِبِهِ، وَلا حَصَلَ بِسَبَبِ ذلِكَ تَغيُّرٌ مِنّا وَلا بُغْضٌ، بَلْ هُوَ بَعْدَ ما عُومِلَ بِهِ مِن التَّغْليظِ والتَّخْشينِ أَرْفَعُ قَدْرًا، وأَنْبَهُ ذِكرًا، وأَحَبُّ وأَعظَمُ.

وإِنَّما هَذِهِ الأُمُورُ هيَ مِنْ مَصالِحِ المُؤمِنينَ الَّتي يُصلِحُ اللهُ بِها بَعْضَهُمْ بِبَعض، فَإِنَّ المُؤمِنَ لِلمُؤمِنِ كاليَدَينِ تَغْسِلُ إِحداهُما الأُخرَى، وَقَدْ لا يَنقَلِعُ الوسَخُ إِلّا بِنَوْعٍ مِن الخُشُونَةِ؛ لكِنَّ ذلِكَ يُوجِبُ مِن النَّظافَةِ والنُّعُومَةِ ما نَحْمَدُ مَعَهُ ذلِكَ التَّخْشينَ.

وتَعلَمُونَ: أَنّا جَميعًا مُتَعاوِنُونَ عَلَى البِرِّ والتَّقوَى، واجِبٌ عَلَينا نَصرُ بَعضِنا بَعضًا أعْظَمَ مِمّا كانَ وأشَدَّ، فَمَنْ رامَ أَنْ يُؤذيَ بَعضَ الأَصْحابِ أو الإِخوانِ - لِما قَدْ يَظُنُّهُ مِنْ نَوْعِ تَخْشينٍ عُومِلَ بِهِ بِدِمَشْقَ أو بِمِصر السّاعَةَ أو غَيْر ذلِكَ - فَهُوَ الغالط.

وكَذَلِكَ مَنْ ظَنَّ أَنَّ المُؤمِنينَ يَبخَلُونَ عَمّا أُمِرُوا بِهِ مِن التَّعاوُنِ والتَّناصُرِ، فَقَد ظَنَّ ظَنَّ سُوءٍ، وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغني مِن الحَقِّ شَيئًا، وَما غابَ عَنّا أَحَدٌ مِن الجَماعَة، أو قَدِمَ إلينا السّاعَةَ، أو قَبلَ السّاعَةِ؛ إِلّا ومَنزلتُه عندنا اليَومَ أعظَمُ مِمّا كانت وأجَلُّ وأرفَعُ.

وتعلَمُونَ - رضيَ اللهُ عنكُم -: أَنَّ ما دُونَ هَذِهِ القَضيَّةِ مِن الحَوادِثِ يقَعُ فيها مِن اجتِهادِ الآراءِ واختِلافِ الأهواءِ وتَنوُّعِ أحوالِ أهلِ الإيمانِ، وما لا بُدَّ مِنهُ - مِنْ نزَغاتِ الشَّيْطانِ - ما لا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُعرَّى عنهُ نوعُ الإنسانِ.

وقد قالَ - تعالى -: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

---

(١) الأحزاب: ٧٢-٧٣.

بَلْ أَنا أَقُولُ ما هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذلِكَ - تَنْبِيهًا بِالأَدْنى عَلى الأَعْلى، وَبِالأَقْصى عَلى الأَدْنى - فَأَقُولُ:

تَعْلَمُونَ كَثْرَةَ ما وَقَعَ في هَذِهِ القَضِيَّةِ مِن الأَكاذِيبِ المُفْتَراةِ والأَغالِيطِ المَظْنُونَةِ والأَهْواءِ الفاسِدَةِ وَأَنَّ ذلِكَ أَمْرٌ يُجَلُّ عَن الوَصْفِ، وَكُلُّ ما قِيلَ مِنْ كَذِبٍ وَزُورٍ؛ فَهُوَ في حَقِّنا خَيرٌ ونعمةٌ.

قالَ - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وقد أظهرَ اللهُ مِنْ نُورِ الحَقِّ وبُرهانِهِ ما رَدَّ بِهِ إفْكَ الكاذِبِ وبُهتانَهُ.

فَلا أُحِبُّ أَنْ يُنتَصَرَ مِنْ أحدٍ بسَبَبِ كَذِبِهِ عَلَيَّ، أو ظُلْمِهِ وَعُدْوانِهِ، فَإِنِّي قَدْ أحلَلْت كُلَّ مُسْلِمٍ، وَأَنا أُحِبُّ الخَيرَ لِكُلِّ المُسلِمينَ، وأُريدُ لكُلِّ مُؤمِنٍ مِن الخَيرِ ما أُحِبُّهُ لِنَفْسي.

والَّذينَ كَذَبُوا وظَلَمُوا فَهُم في حِلٍّ مِنْ جِهَتي.

وأَمّا ما يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ اللهِ؛ فَإِنْ تابُوا تابَ اللهُ عَلَيْهِم، وَإِلّا فَحُكْمُ اللهِ نافِذٌ فيهِم، فلَو كانَ الرَّجُلُ مشكُورًا على سُوءِ عَمَلِهِ؛ لكُنت أَشكرُ كُلَّ مَنْ كانَ سَبَبًا في هَذِهِ القَضِيَّةِ، لِما يترتَّبُ عليهِ مَنْ خَيرِ الدُّنْيا والآخِرَةِ؛ لَكِنَّ اللهَ هُوَ المَشْكُورُ عَلى حُسْنِ نِعَمِهِ وَآلائِهِ وَأَيادِيهِ الَّتي لا يَقْضي لِلمُؤمِنِ قَضاءً إلّا كانَ خَيرًا لَهُ.

(١) النور: ١١.

وأهلُ القَصْدِ الصّالحِ يُشْكَرُونَ عَلَى قَصدِهِم، وأهلُ العَمَلِ الصّالحِ يُشْكَرُونَ عَلَى عَمَلِهِم، وأهلُ السَّيِّئاتِ نَسألُ اللهَ أَنْ يتُوبَ عَلَيهِم، وأَنتُم تعلَمُونَ هَذا مِنْ خُلُقِي، والأَمرُ أَزْيَدُ مِمّا كانَ وأَوكَدُ، لكِنَّ حُقُوقَ النّاسِ بَعضِهِم مَعَ بَعضٍ، وَحُقُوقَ اللهِ عَلَيهِم هُم فيها تَحتَ حُكْمِ اللهِ.

وأنتُم تَعلَمُونَ أَنَّ الصِّدّيقَ الأكبَرَ في قَضيَّةِ الإفكِ الَّتي أنزلَ اللهُ فيها القُرآنَ، حلفَ لا يَصِلُ مِسْطَحَ بنَ أُثاثة لأنَّهُ كانَ مِنَ الخائِضينَ في الإفكِ، فأنزلَ اللهُ - تعالى -: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

فلمّا نزلَتْ قالَ أبو بكرٍ: بَلَى واللهِ إنّي لأُحِبُّ أن يغفِرَ اللهُ لي، فأعادَ إلَى مِسطَحٍ النَّفقَةَ الَّتي كانَ يُنفِقُ»(٢).

وقال -رَحِمَهُ اللهُ- في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٤٥):

«هَذا وأنا في سِعةِ صَدرٍ لمَنْ يُخالِفُني، فإنَّهُ وإنْ تعدَّى حُدُودَ اللهِ فيَّ بتكفيرٍ أو تَفْسيقٍ أو افتِراءٍ أو عَصبيَّةٍ جاهِلِيَّةٍ؛ فأَنا لا أَتعَدَّى حُدُودَ اللهِ فيهِ، بَلْ أَضبُطُ ما أَقولُهُ وأفعَلُهُ، وأزِنُهُ بِميزانِ العدلِ، وأجعلُهُ مُؤتمًّا بالكِتابِ الَّذي أنزلَهُ اللهُ وجعَلَهُ هُدًى للنّاسِ، حاكِمًا فيما اختلَفُوا فيهِ.

قالَ اللهُ - تعالى -: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

---

(١) النور: ٢٢.

(٢) انظر: البخاري: (٢٦٦١)، ومسلم: (٢٧٧٠).

وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾[1]».

وقال -رَحِمَهُ اللَّهُ- في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٨٢):

«ولا يَجُوزُ تكفيرُ المُسلِمِ بِذنبٍ فَعلهُ ولا بخطإٍ أخطأَ فيهِ، كالمسائِلِ الَّتي تَنازَعَ فيها أهلُ القِبلَةِ».

وتتلخّص توجيهاته وآدابه في الآتي:

* عدم حُبّه أن يؤذي أحد من عموم المسلمين.

تصريحه أنّه ليس عنده عتب على أحدٍ منهم ولا لوم أصلًا، بل لهم عنده من الكرامة والإجلال والمحبة والتعظيم أضعاف أضعاف ما كان.

* الإعذار للمخطئ بأنّه مأجور مشكور معفوٌّ عنه مغفور له

* طلب طَوْي بساط الكلام المخالف لهذه المفردات، كقول القائل: فلانٌ قصَّر، فلان لم يعمل، فلان أوذي الشَّيخ بسببه، وطلبه ألا يؤذى أحد من هؤلاء فهو لا يسامح من يفعل هذا.

* وبيان أن ما جرى من التغليظ والتخشين، أمرٌ لا بُدَّ منه للإصلاح، قائلًا: «فإنَّ المؤمن للمؤمن كاليدين؛ تغسل إحداهما الأُخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلّا بنوعٍ من الخشونة، لكن ذلك يوجب النظافة والنعومة، ما نحْمَد معه ذلك التخشين.

* وبيان وجوب نَصْر المؤمن لأخيه، وتحذيره من الظنّ السَّيء بالمؤمنين،

---

(١) البقرة: ٢١٣.

وأنّهم يبخلون عمّا أُمِروا به من التعاون والتناصر.

وتكرّر منه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنّ منزلة هؤلاء الذين ينسب إليهم التقصير وغير ذلك من المواقف؛ أنّها صارت أعظمَ ممّا كانت وأجل وأرفع.

كما حذّر من نَزَغاتِ الشَّيطان، وما وقع من الأكاذيب المُفْتَراة والأغاليط المظنونة، والأهواء الفاسدة.

وبيان أنّه لا يجب الانتصار له من أحد بسبب كَذِبه عليه، أو ظُلمه وعدوانه، وتصريحه أنّه قد أحلّ كلّ مسلم، وأنه يحب الخير لكلّ المسلمين، وأنّه يحب لكل مؤمن من الخير ما يحبه لنفسه، وتوكيده على أنه جعل في حِلّ؛ كُلّ من كذب عليه وظَلَمه.

ثمَّ دعاؤه لأهل السيئات أن يتوب الله عليهم، مُذكّرًا بعفو الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن مسطح في قضية الإفك.

وبيان عدم جواز تعدّي حدود الله فيمن يخالفك؛ بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصَبيّة جاهليّة، وأنّه لا يحلّ معاونة عدوّ من تخالف، وكذلك فعَل شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

ورحم الله شيخ الإسلام فقد كان يُعطي أروع الأمثلة في ذلك، فقد جاء في «العقود الدريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة» (ص ٢٩٨):

« ... وسمعتُ الشَّيْخ تَقيّ الدّين ابن تَيْميَّة -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يذكر أَنَّ السُّلْطَان لمَّا جَلَس بالشباك؛ أخرَج مِن جيبه فَتاوَى لبَعض الحاضِرين في قَتله، واستفتاه في

قتل بَعضهم.

قَالَ: ففهمتُ مَقصُوده، وَأنَّ عِنْده حنقًا شَديدًا عَلَيهِم لمّا خلعوه وبايَعُوا الملك المظفَّر ركن الدّين بيبرس الجاشنكير.

فشرعتُ في مدحِهِم، والثناء عَلَيهِم، وشُكرِهم، وأَنَّ هؤُلاءِ لو ذَهَبُوا لم تَجِد مثلهم في دولتِك، أمّا أنا فهم في حلٍّ مِن حَقي وَمِن جهتي، وسكَّنتُ ما عِنْده عَلَيهِم.

قال: فكانَ القاضي زيد الدّين ابن مَخلوف قاضي المالكيَّة يقُول بعد ذلِك: **ما رأينا أتقى من ابن تَيميَّة، لم نُبقِ مُمكنًا في السَّعْي فيه، وَلمَّا قَدِر علينا عَفا عَنَّا.**

ثمَّ إنَّ الشَّيْخ بعد اجتماعه بالسلطان، نزَل إِلَى القَاهِرَة وَسكن بِالقربِ من مشهد الحُسَيْن، وَعاد إِلَى بَثِّ العلم وَنشْره، والخلق يشتغلون عَلَيهِ ويقرأون، ويستفتونه ويجيبهم بالكَلامِ والكِتابَة، والأُمراء والأكابر وَالنَّاس يَترَدَّدُون إِلَيه، وَفيهِم من يعتَذر إِلَيهِ ويتنصل مِمَّا وَقع، فقالَ: « **قد جَعلْتُ الكُلَّ في حِلٍّ مِمَّا جرى** ».

وَبعث الشَّيْخ كتابًا إِلَى أَقَاربه وَأَصحَابه بِدِمَشْق، يذكر مَا هُوَ فيهِ من النِّعم العَظيمَة والخَيْر الكثير، وَيطلب فيهِ جملَةً مِنْ كتبِ العِلم يُرْسلُ بهَا إِلَيهِ ».

قال ابن القيِّم -رَحِمَهُ اللَّهُ- بعد أن ذكر عددًا من خِصال شيخ الإسلام الكريمة:

« وما رَأيتُ أحدًا قطُّ أجمَعَ لهَذِهِ الخِصالِ مِن شَيخِ الإسلامِ ابنِ تَيمِيَّةَ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ -.

وكانَ بعضُ أصحابِهِ الأَكابِرِ يَقُولُ: ودِدْتُ أنّي لأَصحابي مِثلُهُ لأَعدائِهِ وخصُومِهِ.

وَما رَأيتُهُ يَدْعُو عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ قَطُّ، وَكانَ يَدعُو لَهُمْ.

وَجِئتُ يومًا مُبَشِّرًا لَهُ بِموتِ أَكبرِ أَعْدائِهِ، وَأَشَدِّهِم عَداوَةً وَأَذًى لَهُ، فَنَهَرَني وَتَنكَّرَ لي وَاسترجَعَ، ثُمَّ قامَ مِنْ فَوْرِهِ إِلَى بَيْتِ أَهلِهِ فَعَزَّاهُم، وقَالَ: إِنّي لكُم مَكانَهُ، ولا يَكُونُ لَكُمْ أَمْرٌ تَحْتَاجُونَ فيهِ إِلَى مُساعَدَةٍ؛ إِلَّا وَسَاعَدْتُكُمْ فيهِ، وَنَحْوَ هَذا مِنَ الكَلامِ، فَسُرُّوا بِهِ ودَعَوا لَهُ، وَعَظَّمُوا هَذِهِ الحالَ مِنهُ، فَرَحِمَهُ اللهُ ورَضيَ عَنهُ »[١].

وقال شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللهُ- في «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٧١):

« وأنا - واللهِ - مِنْ أعْظَمِ النَّاسِ مُعاوَنَةً عَلَى إطْفَاءِ كُلِّ شَرٍّ فيهَا وفي غَيْرِها، وإِقامَةِ كُلِّ خَيْرٍ، وَابنُ مَخْلُوفٍ لَوْ عَمِلَ مَهما عَمِلَ، واللهِ ما أقدِرُ عَلَى خَيرٍ إِلَّا وأعمَلُهُ معَهُ، ولا أُعينُ عليَهِ عدُوَّهُ قَطُّ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ.

هذِهِ نيَّتي وعزمي، مَعَ عِلمي بجَميعِ الأُمُورِ، فإِنّي أَعلَمُ أَنَّ الشَّيطانَ يَنزَغُ بَينَ المُؤمِنينَ، ولَن أكُونَ عَونًا لِلشَّيطانِ عَلَى إخواني المُسلِمينَ.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٤٥).

ولَوْ كُنت خارِجًا لكُنْت أعلَمُ بِماذا أُعاوِنُهُ، لكِنَّ هَذِهِ مَسأَلَةٌ قدْ فعَلُوها زُورًا، واللهُ يختَارُ لِلمُسلِمينَ جَميعِهِم ما فيهِ الخيَرَةُ في دينِهِم ودُنياهُم، ولنْ ينقَطِعَ الدَّورُ وتَزُولَ الحَيرَةُ إلَّا بالإنابةِ إلَى اللهِ، والاستِغفارِ والتَّوْبةِ، وصِدقِ الالتجَاءِ، فإنَّهُ - سبحانَهُ - لا ملجَأَ منهُ إلَّا إليهِ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ».

قلت: تأمّل موقف شيخ الإسلام -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عندما مُكِّن من خُصومه، وقَدِر عليهم - بإذن الله تعالى -.

وتدبّر قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «فشرعتُ في مدحِهِم، وَالثناء عَلَيهِم، وشُكرِهِم، وأنَّ هؤُلاءِ لو ذَهَبُوا؛ لم تَجِد مثلهم في دولتِك».

إنّه لا يمكن أن يكون هذا الموقف وليد لحظة، لا بُدَّ أن يكون نابعًا من رصيد عِلمٍ وعملٍ وتربيةٍ وإحسان ومراقبةٍ لله -تعالى- ولا أزكّي على الله أحدًا.

إنّه العفو عند المقدرة.

إنّه النظر من قلب ينظر لمصلحة أهلِ الإسلام.

ثمَّ قوله -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «أمّا أَنا فَهُم في حلٍّ مِن حَقي وجهتي».

ما أجمل أن يقول كلّ واحدٍ مِنّا لخصومه هذه العبارات، ابتغاء وجه ربِّنا الأعلى - سبحانه وتعالى -.

«... وسكّنت ما عنده عليهم».

لقد أخذ يسكِّن السلطان عليهم.

كم مِن النَّاس مَن أخذ يَعْمدُ بتهييج السلطان على بعض العلماء وطُلَّاب

العلم، لمصلحة دنيويّة وأغراضٍ دنيئة.

لا يألون جُهدًا في إقناع السلطان بعداوتهم.

فيتبنّى السُلطان ذلك تديُّنًا، فإنّ السلطان - كما لا يخفى - لا يتبنّى شيئًا لمالٍ ولا لجاهٍ، إذ هو مستَغْنٍ عن ذلك.

أمّا أولئك فإنّهم يلهثون وراء الدُّنيا.

وأمّا من كان متأوّلًا؛ فعليه أن يتقيَ الله - تعالى - ويقدِّر الآراء، ويعلم أنّ الأمر بين الأجر والأجرين.

وماذا معَ تلك المقولة التي أشبهت الخيال؟

وهي قول بعض أصحابه الأكابر: « ودِدت أنّي لأصحابي مثله لأعدائه وخصومِه ».

... فكيف إذن كان شيخ الإسلام لأصدقائه؟!

إنّ كُلَّ من يريد المسابقة والمسارعة إلى جنّة عرضها السماوات والأرض؛ ينبغي أن يتعلّم سَعة الصّدر، والعفو والصَّفح، كي يبلغ المراد، ويحقِّق المقصود.

« ... وما رأيته يدعو على أحدٍ منهم قطّ، وكان يدعو لهم.. ».

هذه شهادة أشد المحبين الذين عايشوا هذه المواقف العظيمة.

وما هو موقفه عندما بَلَغَهُ وفاة أكبر أعدائه وأشدّ المؤذين له؟

استرجاع، وذهاب إلى بيت أهله ليعزّيهم ويواسيهم، ويقول لهم: « إنّي

لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة؛ إلّا وساعدتكم فيه .. ».

كيف نعبِّر عن عظمة هذا الموقف؟!

ماذا يُنظم في هذا من الشعر؟!

وماذا يُكتب من النَّثر؟!

إنّ هذا يحتاج إلى قلبٍ مؤمن صادق ليعبِّر عن هذا، ولا أجد أقوى سبيلًا لي في التعبير إلَّا أن أقول: إني عاجز ... إني عاجز؛ عسى أن يكون هذا عُذرًا لي.

« ... ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين ».

.. إنّه يتذكر مع خصومتهم وعدائهم أُخوّة الإسلام، وما أعظمها من أخوّة، وأجْمِل بها من صلة.

وما الذي جعل أُمّتنا تتقهقر ؟!

تقرُّب بعضهم لله - تعالى- بزعمهم، بأن يكونوا عونًا للشيطان على إخوانهم المسلمين.


المديهش
@IBRAHIM_ALMDEHES
H


قناة إبراهيم المديهش العلمية